المحاسبة

ح مجموعة زاد للنشر ١٤٣٠ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المنجد ، محمد صالح
المحاسبة ، محمد صالح المنجد – الخبر ١٤٣٠هـ
٦٤ ص ، ١٢×١٧ سم
ردمك : ٢-٠٠-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨
١- الوعظ والإرشاد أ.العنوان
ديوي : ٢١٣ ١٤٣٠/٢٠٦٨

الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

محمد صالح المنجد

المحاسبة

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن محاسبة النفس طريقة المؤمنين، وسمة الموحدين، وعنوان الخاشعين، فالمؤمن متقٍ لربه، محاسبٌ لنفسه مستغفرٌ لذنبه، يعلم أن النفس خطرها عظيم، وداؤها وخيم، ومكرها كبير، وشرها مستطير، فهي أمارةٌ بالسوء، ميالةٌ إلى الهوى، داعيةٌ إلى الجهل، قائدةٌ إلى الهلاك، توّاقةٌ إلى اللهو، إلا من رحم الله، فلا تُترك لهواها لأنها داعية إلى الطغيان، من أطاعها قادته إلى القبائح، ودعته إلى الرذائل، وخاضت به المكاره.

ولذا ينبغي على العبد أن يزن نفسه قبل أن يوزن، ويحاسبها قبل أن يحاسب، ويتزين ويتهيأ للعرض على الله.

وسنتطرق في هذا الكتيب لبيان بعض ما قيل في محاسبة الإنسان لنفسه.

وهو الكتيب الثاني عشر والأخير ضمن سلسلة أعمال القلوب التي يسر الله لي إلقاءها في دورة علمية، وشاركني في إعدادها الفريق العلمي في مجموعة زاد، وها هو اليوم يسعى لإخراجها على هيئة مادة منشورة.

ونسأل الله البر والتقوى والتوفيق لما يحب ويرضى.

تعريف المحاسبة

في اللغة:

مصدر من حاسب يحاسب.

والمحاسبة: مفاعلة من الحساب، وهو استيفاء الأعداد[(١)].

والفعل المجرد منه هو: حسب يحسب حسباناً وحساباً وحسابة وحسباً، أي: عد[(٢)].

وفي الاصطلاح:

إذا ربطنا المعنى اللغوي بالاصطلاحي فإننا نستطيع أن نقول: إن المحاسبة هي عد السيئات، وعد العيوب.

وعرّف الماوردي المحاسبة فقال: (أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (٦٤٠).

(٢) القاموس المحيط (١/ ٩٤).

بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل)[١].

وعرّف بعضهم المحاسبة بأنها: (قيام العقل على حراسة النفوس من الخيانة، فيتفقد زيادتها ونقصانها، ويسأل عن كل فعل يفعله لمَ فعلته؟ ولمن فعلته؟ فإن كان لله مضى فيه، وإن كان لغير الله امتنع عنه، وأن يلوم نفسه على التقصير والخطأ، وإذا أمكن المعاقبة، أو صرفها إلى الحسنات الماحية).

فالمحاسبة هي: النظر في أعمال النفس، واستدراك الأخطاء، والمضي في الصالحات.

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (٤٥٣-٤٥٤) بتصرف.

أصل المحاسبة

أمر الله سبحانه عباده بمحاسبة أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٨-١٩].

يقول ابن سعدي -رحمه الله-: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سراً وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا بالمقام بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا أن الله خبير بما يعملون لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها؛ أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة **أصل في محاسبة العبد نفسه**، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده، واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة.

والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره؛ لأنهم هم الفاسقون)[١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٥٣).

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فوصف المتقين بأنهم إذا أصابوا شيئاً من السيئات بتسويل إبليس لهم بذلك؛ تذكروا، ورجعوا إلى الله، وأنابوا وتابوا.

وهذا لا يكون إلا بمحاسبة النفس على كل ما تعمله.

وقد دلت السنة أيضاً على مشروعية المحاسبة:

عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ**». قال الترمذي: (دان نفسه: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة)[1].

كما أن محاسبة النفس من الأعمال المجمع عليها بين العلماء:

قال العز بن عبد السلام-رحمه الله-: (أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفس فيما سلف من الأعمال، وفيما يستقبل منها)[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وحسنه.
(٢) تفسير الثعالبي (٤/ ٣٩٩).

النفس وأمراضها

إن النفس البشرية إن لم يَقُدْها الإنسان بكتاب الله وسنة نبيه قادته إلى الهلاك والردى، وليس من سبيلٍ لقيادتها إلى السلوك السوي إلا بمحاسبتها على أنفاسها وخطراتها، وقد قيل: (النفس كالشّريك الخوّان إن لم تحاسبه ذهب بمالك!)[(١)].

والنفس الفاسدة هي سبب أمراض القلوب، يقول ابن القيم-رحمه الله-: (إن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصبّ، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأول ما تنال القلب.

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة: «**وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»[(٢)].

وقد استعاذ ﷺ من شرها عموماً، ومن شر ما يتولد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩).

(٢) رواه الترمذي (١١٠٥) وحسنه.

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعةٌ بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدْخَل على الله سبحانه ولا يُوصَل إليه إلا بعد الظفر بالنفس وكفها عن الشر، فإن الناس على قسمين:

قسمٌ ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعاً لها، تحت أوامرها.

وقسمٌ ظفروا بأنفسهم فقهروها، فصارت طوعاً لهم منقادة لأمرهم.

قال بعض العارفين: (انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسِر وهلك).

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١])[١].

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب

(١) إغاثة اللهفان (٧٤-٧٥).

يدعو العبد إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي تارة، وإلى هذا تارة، وهذا موضع الابتلاء والمحنة.

أوصاف النفس في القرآن:

وصف الله النفس في القرآن الكريم بثلاثة أوصاف: المطمئنة، واللوامة، والأمّارة بالسوء.

النفس المطمئنة:

النفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه؛ فهي نفس مطمئنة، وهي التي يقال لصاحبها عند الوفاة: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فسكنت إلى ربها نتيجة طاعته وذكره واتباع أمره ولم تسكن إلى سواه، فاطمأنت إلى محبته وعبوديته والإيمان بخبره ولقائه، واطمأنت إلى

التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، وللرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، واطمأنت إلى قضائه وقدره، وإلى كفايته وحسبه، وأن الله يدافع عنها ويكفيها الشرور وكيد الكائدين والحاسدين والأعداء، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، ولا غنى لها عنه طرفة عين، فهذه هي النفس المطمئنة.

النفس الأمارة بالسوء:

على الضد والنقيض من النفس المطمئنة: النفس الأمارة بالسوء، وهي التي تأمر صاحبها باتباع الشهوات من الغي والباطل، فهي مأوى كل سوء، وهي التي تقوده إلى القبيح والمكروه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف:٥٣].

وقال: (أمّارة) بصيغة المبالغة، ولم يقل: آمرة!!، لأن (أمّارة) أبلغ، فهي كثيرة الأمر بالسوء.

والنفس أصلاً خُلِقت ظالمة جاهلة إلا من رحم الله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

نعم، أوجد عندها الاستعداد الفطري لقبول الحق إذا عُرِض عليها بغير مؤثرات خارجية مفسدة، قال سبحانه: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، لكن إذا لم تُعَلّم النفس تبقى جاهلة فيها هوى، ولو تركت بدون تربية وترويض فهي تدعو إلى الطغيان وتميل إلى الشر، فالعدل والعلم طارئ عليها وليس أصلاً فيها، ولولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكى منهم نفس واحدة، فإذا أراد بها خيراً أعانها على الفقه في دينه والعمل بشريعته.

وسبب الظلم في النفس الأمارة بالسوء: إما الجهل، وإما الحاجة، ولذلك كان أمرها بالسوء لصاحبها لازماً لها إلا إذا أدركته رحمة الله، وبذلك يعلم العبد أنه مضطر إلى الله دائماً محتاج إليه باستمرار حتى يكفيه شر نفسه، ويعينه عليها، وضرورةُ العبدِ إلى ربه فوق كل ضرورة، وأكثر من ضرورته للطعام والشراب والنَّفَس.

النفس اللوامة:

مشتقة من اللوم، تلوم صاحبها على الخير وعلى الشر، فهي نفسٌ مخلّطة! فيها خير وشر.

تلوم على الشر كما قال الحسن البصري -رحمه الله-: (إن المؤمن -والله- ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاتها، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قُدُماً لا يعاتب نفسه)[١].

حتى يوم القيامة تلومه نفسه، إن كان محسناً لماذا لم يزدد إحساناً وهذه مراتب الجنة أمامه، وإن كان مسيئاً فلماذا عمل السوء وهذه النار أمامه؟! فهي تلومه في الدنيا، وتلومه في الآخرة! تلوم المسيء أن لا يكون رجع عن إساءته، وتلوم المحسن إن لم يزدد إحساناً.

فالنفس تارة تكون أمارة بالسوء، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٧).

وكونها مطمئنةً وصفُ مدح لها، وكونها أمارةً بالسوء وصفُ ذمٍّ لها، وكونها لوّامة ينقسم إلى مدح وذم بحسب ما تلوم عليه، وهذه حال النفس.

وليس شرطاً أن تكون النفس عند فلان من الناس مطمئنة دائماً، أو أمارة بالسوء دائماً، فقد تكون في بعض أوقاتها مطمئنة، وفي البعض الآخر أمارة بالسوء، وأحياناً لوامة، وهكذا!.

بل في اليوم الواحد، والساعة الواحدة، يحصل فيها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها.

فحاسب نفسك في خلوتك، وتفكر في انقراض مدتك، واعمل في زمان فراغك لوقت شدتك، وتدبر قبل الفعل ما يملى في صحيفتك، وانظر: هل نفسك معك أو عليك في مجاهدتك؟ لقد سعد من حاسبها، وفاز والله من حاربها، وقام باستيفاء الحقوق منها وطالبها، وكلما زلت عاتبها، وكلما توافقت جذبها، وكلما نظرت في آمال هواها غلبها.

كيفية المحاسبة

الشدة في المحاسبة:

لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك الشحيح لشريكه. عن ميمون بن مهران- رحمه الله- قال: (لا يكون الرجل تقياً حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الرجل شريكه، حتى ينظر من أين مطعمه ومشربه ومكسبه؟)[١].

وقال أيضاً: (التقي أشد محاسبة لنفسه من شريك شحيح)[٢].

فالشدة في المحاسبة هي التي تثمر النتائج المطلوبة من تلك المحاسبة، أما التساهل في المحاسبة كما يفعله بعض الناس، فيقول: هذا العمل صغيرة من الصغائر، وهذا العمل

(١) حلية الأولياء (٤/ ٨٩).
(٢) محاسبة النفس (٩).

فيه خلافٌ بين العلماء في تحريمه، وهذا العملُ الراجحُ فيه الكراهة ونحو ذلك؛ فإن هذه ليست بمحاسبة، بل هو تسويغٌ للنفس لكي تزداد وتتمادى في ضلالها.

المحاسبة على كل شيء:

عن سعيد بن جبير -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: (تلوم على الخير والشر)[١].

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: (إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ماذا أردت بكلمتي؟ يقول: ماذا أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ فلا تراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدماً فلا يعاتب نفسه)[٢].

فالمحاسبة لا تقتصر على السيئات والمعاصي، بل على الإنسان أن يحاسب نفسه حتى على أعماله المباحة.

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٢٧).

(٢) الزهد للإمام أحمد (٢٨١).

إلزام النفس بالأعمال الصالحة من بعد المحاسبة:

إن كل عملٍ إذا لم يثمر نتيجته فهو عمل ناقص، يحتاج صاحبه إلى النظر فيه مرة أخرى، فإذا لم تأتِ المحاسبة بثمراتها فعلى صاحبها أن يحاسب نفسه مرة أخرى، بل عليه أن يحاسب نفسه على تلك المحاسبة.

قال مالك بن دينار -رحمه الله-: (رحم الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زمّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان لها قائداً)[١].

وقال إبراهيم التيمي-رحمه الله-: (مثلت نفسي في الجنة؛ آكل ثمارها وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار؛ آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُردَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً. قال: قلت: فأنتِ في الأمنية فاعملي)[٢].

---

(١) محاسبة النفس (٨)، وتاريخ دمشق (٥٦/ ٤٢٠).

(٢) محاسبة النفس (١٠).

ثمرات المحاسبة

إن محاسبة النفس على أعمالها وأقوالها وخطراتها طريق لكل فلاح ونجاح، وسببٌ لسعادة المسلم في دنياه وأخراه، قال الحسن: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همه)[١].

وإليك هذه الثمرات المتحققة للمسلم من محاسبته لنفسه:

تخفيف الحساب يوم القيامة:

إن محاسبة المسلم لنفسه في دنياه سببٌ لتخفيف الحساب عنه يوم القيامة؛ لأنه سيعمل على التخفيف من سيئاته، والتكثير من حسناته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا،

---

(١) محاسبة النفس (٦).

فإنه أهون عليكم، وتجهزوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٨])[1].

وعن جعفر بن برقان-رحمه الله- قال: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى بعض عمّاله، فكان في آخر كتابه: (حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة؛ فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته و شغله هواه عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما يُنتهي عنه)[2].

قال الحسن البصري -رحمه الله-: (المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة.

إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من وصلة إليك، هيهات!

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٠٧).
(٢) محاسبة النفس (١٦).

حيل بيني وبينك، ويفرُط -أي: يقع- منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله ما لي عذر بها، ووالله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله)[(١)].

قال الفضيل بن عياض -رحمه الله-: (المؤمن يحاسب نفسه، ويعلم أن له موقفاً بين يدي الله تعالى، والمنافق يغفل عن نفسه، فرحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول ملك الموت به)[(٢)].

التمكن من الهدى والاستقرار عليه:

يقول البيضاوي -رحمه الله-: (والتمكن من الهدى والاستقرار عليه إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على حساب النفس في العمل)[(٣)].

علاج مرض القلب:

لأن مرض القلب لا يمكن إزالته وعلاجه إلا بمحاسبة

(١) الزهد لابن المبارك (٣٠٨).
(٢) تاريخ بغداد (٤/ ١٨٤).
(٣) تفسير البيضاوي (١٢٩).

النفس ومخالفتها، وهلاك القلب من إهمال محاسبة النفس، ومن موافقتها واتباع هواها، فالعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني، فهو يميل حسب ما تميل نفسه، وهو يذهب حيثما تريد، فيفسد قلبه بذلك، ومخالفتها هو سبيل صلاح القلب وعلاجه من أمراضه.

اكتشاف مساوئ النفس وعيوبها، وعدم الاغترار بالعمل:

فإن الإنسان متى ما حاسب نفسه وجد عيوبها، ومتى ما وجد عيوبها لم يغتر بالأعمال الصالحة التي يعملها، بل يرجو ربه أن يقبل منه تلك الأعمال على ما هي فيه من النقص.

قال عبد العزيز بن أبي رَوَّاد -رحمه الله-: (ما دخلت في شيء من أعمال البر، فخرجت منه، فحاسبت نفسي؛ إلا وجدت نصيب الشيطان فيه أوفر من نصيب الله تعالى)[1].

(١) الكامل لابن عدي (٥/ ٢٩١).

ومحاسبة النفس تؤدي إلى عدم الغرور والتكبر:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: (لا يفقه الرجل حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً)[١].

أي: إن الإنسان بمحاسبة نفسه سيصل إلى مقتها وبغضها؛ لأنه يعلم أنها بمساوئها قد تقف حجر عثرة في طريقه لدخول الجنة، ومَنْ كانت هذه حاله فأَنَّى له الغرور والتكبر؟!.

وعندما حاسب السلفُ أنفسهم أدركوا حقيقتها، فاحتقروها في ذات الله وفي جنبه.

وكان بعض السلف يقول في دعائه في عرفة والناس من حوله: (اللهم لا تردهم لأجلي!)[٢].

وكان محمد بن واسع -رحمه الله- يقول: (لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ!)[٣]، مع أنه من كبار العُبَّاد في هذه الأمة.

---

(١) محاسبة النفس (٢٣).

(٢) الزهد للإمام أحمد (٢٤٤).

(٣) محاسبة النفس (٣٧).

وقال يونس بن عُبيد-رحمه الله-: (إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة!)[١].

وهذا حمّاد بن سلمة-رحمه الله- دخل على سفيان الثوري وهو يحتضر فقال: يا أبا عبد الله، أليس قد أمِنتَ مما كنت تخافه؟ وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟! قال: يا أبا سلمة، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟! قال: إي والله إني لأرجو لك ذلك[٢].

فإن كان أئمة الحديث والفقه والزهد لا ينجون من النار؛ فليت شعري من الناجي؟!.

وقال جعفر بن زيد-رحمه الله-: (خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنَزل الناس عند العتمة فصلوا ثم اضطجع، فقلت: لأرمقنّ عمله، فالتمس غفلة الناس فانسلّ وثباً، فدخل غيضة[٣] قريباً منا، فدخلت على

(١) محاسبة النفس (٣٤).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٨٥).
(٣) مجموعة أشجار ملتفة.

إثره، فتوضأ ثم قام يصلي، فجاء أسد حتى دنا منه فصعدت في شجرة، فلما سجد قلت: الآن يفترسه. فجلس ثم سلّم ثم قال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر. فولّى وإن له زئيراً، فمازال كذلك يصلي حتى كان الصبح فجلس يحمد الله وقال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، **ومثلي يستحي أن يسألك الجنة!**. ثم رجع وأصبح وكأنه بات على حشايا، أما أنا فأصبح بي ما الله به عليم من هول ما رأيت!)[(١)].

الاستفادة من الأوقات:

إن محاسبة النفس تُفْضي بالإنسان إلى أن يستغل أوقاته أفضل استغلال.

قال ابن عساكر -رحمه الله-: (أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي: كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتاً يمضي عليه بغير فائدة، إما ينسخ، أو يدرس، أو يقرأ)[(٢)].

---

(١) شعب الإيمان (٣٢١١).

(٢) تبيين كذب المفتري (٢٦٣).

فحَقٌّ على من عَرف هذه الثمرات أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، وأن يضيق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن.

من الذي يحاسب نفسه؟

المحاسبة ليست مختصةً بفئة من الناس دون فئة، بل هي شاملة وعامة لجميع المؤمنين، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، صالحهم وطالحهم، عالمهم وجاهلهم.

فيحاسب صاحب الجهل نفسه، كيف يعبد الله وهو على جهل؟ ومتى يزيل الجهل عنه؟ وكيف يزيله؟ وكيف يتعلم؟ وبماذا يبدأ؟

وكذلك يحاسب صاحب العلم نفسه، وقد قيل: إن المحاسبة في النهايات أولى من المحاسبة في البدايات.

أي: إن الذين سمَوا بأنفسهم وترفعوا، فعملوا الصالحات، وطلبوا العلم، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وغير ذلك من الأعمال؛ عليهم أن يحاسبوا أنفسهم وهم على تلك الحالة، أشد من محاسبتهم لأنفسهم على حالة الجهل والضلال.

فكم رأينا من طلبة العلم ممن لم يصن نفسه ولم يحاسبها؛ فانْزلق في بعض المواطن، فلا يحفظ نفسه عن خوارم المروءة،

ولا يترفع بها عن المكروهات، بل قد يقع في بعض المحرمات.

ويترك أمثال هؤلاء محاسبة أنفسهم اتكالاً على العلم الذي عندهم، فيفتخرون به، ويتكبرون على غيرهم، ويقعون في الحسد، والبغض، والغيبة، والنميمة، وتظهر القبائح والعورات، ويرون لأنفسهم مزية ليست لغيرهم، وهي وإن كانت صحيحة إلا أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الجميع على أخطائهم، بل قد يكون حسابهم أشد.

وأمثال هؤلاء لم ينفعهم علمهم؛ لأن العلم للعمل كالسلاح للمجاهد، فإذا لم يستعمله فماذا يفيده؟!، وكالأطعمة المدخرة للجائع، إذا لم يأكل منها فبماذا تنفعه؟!.

يُحَاوِلُ نَيْلَ المَجْدِ وَالسَّيْفُ مُغْمَدٌ
وَيَأْمَلُ إِدْرَاكَ العُلاَ وَهْوَ نَائِمُ![1]

وقد يكون حال بعض الجهال خيراً من حال طلبة العلم الذين هم على هذا الحال؛ لأن بعض العوام قد يُحاسِب نفسه

(١) المدهش (٤٧٠).

على مساوئ الأعمال، ويستدرك نفسه قبل الانزلاق والهوي.

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض طلبة العلم، والتي يجب عليهم أن يحاسبوا أنفسهم عليها: عدم تبليغ العلم، وعدم تدريسه.

وأما العلماء فهم أولى الناس بمحاسبة أنفسهم؛ وما نراه اليوم من الفتاوى الضالة المضلة المنتشرة على القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت سببها عدم محاسبة العلماء لأنفسهم.

ولو وقفوا مع أنفسهم وقفة صدق ما تساهلوا في تلك الفتاوى، وما أصدروا تلك الأحكام الموافقة لهوى المستفتين.

فلذلك محاسبة العلماء وطلبة العلم لأنفسهم ينبغي أن تكون أشد ما تكون؛ لأنه إن حاسب نفسه انتفع ونفع الناس، وإذا ترك محاسبة نفسه ضلّ وأضلّ.

أنواع محاسبة النفس على الأعمال الصالحة

محاسبة النفس ليست على المعاصي فقط، ولكنها تكون في الطاعات أيضاً.

ومحاسبة النفس على الأعمال الصالحة على وجهين: قبل العمل، وبعد العمل.

١- محاسبة النفس قبل العمل:

فيراعي الهمّ والخواطر والإرادات والعزائم التي في نفسه، ويفكر في إرادة عمله، هل هي خالصة لوجه الله؟ فإن كانت كذلك أقدم عليه، وإلا ترك العمل.

يقول الحسن -رحمه الله-: (رحم الله عبداً وقف عند همّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغير الله أمسك)[(١)].

ولا يترك الإنسان جميع الأعمال إذا خاف من الرياء،

---

(١) شعب الإيمان (٧٢٧٩).

وإنما تلك الأعمال التي راءى بها ابتداءً، أما الأعمال الصالحة الواجبة، أو المندوبة التي اعتادها، فلا يتركها، بل يجاهد نيته ويحاول إصلاحها.

وهذا النوع من المحاسبة مهم في إيقاع الأعمال على وجه الإخلاص، وبدون المحاسبة تقع هذه الأعمال على وجه الرياء، فيهلك الإنسان، ويكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية:٣-٤]، فما استفاد من أعماله شيئاً، مع أن ظاهرها الصلاح.

ثم بعد أن يُصَفِّيَ نيتَه ينظر: هل هذا العمل مقدورٌ عليه أو غير مقدور عليه؟.

فإن كان غير مقدور عليه تركه حتى لا يضيع الوقت في شيء لا يقدر عليه.

وإن كان مقدوراً عليه وقف وقفة أخرى، ونظر: هل فعله خيرٌ من تركه، أو تركُه خيرٌ من فعله؟.

فإن كان فعله خيراً من تركه عمِلَه، وإن كان تركُه خيراً من فعله تركه.

وهذه المحاسبة مهمة جداً في وقاية النفس من الشرك الأكبر والشرك الأصغر، أو الشرك الخفي (وهو الرياء).

٢ـ محاسبة النفس بعد العمل:

وهي على ثلاثة أنواع:

أولاً: محاسبتها على طاعة قصرت فيها في حق الله:

فهي محاسبة على العمل بعد الطاعات، كيف أوقع العبادة؟ هل أوقعها على الوجه الذي ينبغي؟ وهل وافق السنة؟ وهل نقص منها؟.

كـ: تفويت خشوع في الصلاة، وخرق الصيام ببعض المعاصي، أو فسوق وجدال في الحج.

وحق الله في الطاعة ستة أمور:

١- الإخلاص في العمل.

٢- النصيحة لله فيه.

٣- متابعة الرسول ﷺ.

٤- أن يحسن فيه ويتقنه.

٥- أن يشهد منّة الله عليه وتوفيقه بتيسير هذا العمل الصالح له وإعانته عليه.

٦- أن يشهد تقصيره بعد العمل الصالح.

ثانياً: محاسبتها على عمل كان تركه خيراً من فعله:

فلا ينبغي للمسلم أن يشتغل بالمفضول حتى يفوته الفاضل، كمن اشتغل بقيام الليل ففاتت صلاة الفجر، أو يشتغل ببعض الأذكار وهناك أذكار غيرها أفضل منها.

عن أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «**مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**» قالت: نعم. قال النبي ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٦).

ثالثا: محاسبة النفس على تفويت النية في الأمور المعتادة المباحة.

إن الإنسان قد يُحَوِّلُ الأمور المعتادة المباحة إلى أعمال صالحة، وذلك إذا نوى فيها النية الحسنة، واحتسب أجر عمله عند الله تعالى.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ**»(١).

فعلى المسلم أن يحاسب نفسه على الأمور المباحة والعادات، هل كان له فيها نية صالحة فيؤجر عليه؟ أو ذهب عليه الأجر الذي فيها إن لم يكن نوى تلك النية الصالحة؟.

---

(١) رواه البخاري (٥٦).

المعينات على المحاسبة

معرفة الله سبحانه:

مما يعين على المحاسبة: استشعار رقابة الله على العبد واطلاعه على خفاياه وأنه لا تخفى عليه خافية، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦]. وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة:٢٣٥].

قال الثعالبي -رحمه الله-: (وبحسب معرفة العبد بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال ربه وتعاليه واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل: تكون قوة خوفه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ثم إذا كملت المعرفة أورثت الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن، فتنقمع الشهوات، وتحترق بالخوف، ويحصل في القلب الذبول، والخشوع، والذلة، والاستكانة، ويصير العبد مستوعب الهم بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يكون له شغل إلا المحاسبة، والمجاهدة،

والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات)[(١)].

معرفته أنه بمحاسبة نفسه سيستريح غداً:

قال ابن القيم -رحمه الله-: (ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً)[(٢)].

التفكر في الأسئلة المطروحة عليه يوم القيامة:

إن التفكر في الأسئلة التي ستكون يوم القيامة؛ كفيلٌ بأن يجعل العبد يحاسب نفسه، ويتجه إلى الله، ويترك الإهمال والهوى، ويتبع الحق، ويلزم نفسه الفرائض، وترك المحرمات، والاستكثار من المستحبات، والبعد عن المكروهات والمشتبهات.

فالعبد سيسأل عن جميع ما عملته أعضاؤه وجوارحه،

---

(١) تفسير الثعالبي (٤/ ٤١٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وسيُسأل عن نِعَم الله عليه هل حقق شكرها، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨].

والسؤال ليس موجهاً للكفار والفساق فحسب، بل هو متوجه للصالحين والرسل أيضاً، قال سبحانه: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٨].

قال مجاهد-رحمه الله-: (الصادقين: المبلغين المؤدين عن الرسل)[١].

وقال السعدي-رحمه الله-: (وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟)[٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٥٩).

فإذا كان الرسل والصادقون سيُسألون يوم القيامة، فما بالك بغيرهم؟!.

معرفته بالجائزة:

قال ابن القيم-رحمه الله-: (يعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه. وخسارتها: دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم)[١].

تذكر يوم القيامة:

كتب عمر بن عبد العزيز-رحمه الله- إلى عدي بن أرطاة: (اتق الله يا عدي، وحاسب نفسك قبل يوم القيامة، واذكر ليلة تمخض فيها الساعة صباحه، يوم القيامة تكور الشمس، وتتناثر منها النجوم، وتصرف فيها الخلائق زمراً زمراً؛ فريق في الجنة وفريق في السعير)[٢].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠).

(٢) تاريخ دمشق (٤٠/ ٦٢).

تذكر الموت:

كان عند معروف الكرخي -رحمه الله- رجلٌ فقال له: صلِّ بنا الظهر. فقال: إن صليت بكم الظهر لم أصلِّ بكم العصر، فقال معروف: وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر، نعوذ بالله من طول الأمل[١].

وتكلم رجلٌ بغيبة عند معروف الكرخي-رحمه الله-، فقال له: (اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك)[٢].

فإذا تذكر الرجل الموت حاسب نفسه على أعماله، وأوقف نفسه عند حدها.

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٦٣).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ١٦٤).

من أين نبدأ في محاسبة النفس؟

قال ابن القيم -رحمه الله-: (يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح.

ثم يحاسبها على المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى.

ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعت أذناه: ماذا أردتُ بهذا؟ ولمن فعلتُه؟ وعلى أي وجه فعلته؟. ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة)[(١)].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٣).

لقد ذكر العلامة ابن القيم -رحمه الله- طريقةً عملية لمحاسبة النفس، فبين ما الذي يُبدأ به في المحاسبة، وما الذي يليه:

١ـ الفرائض: إن جنس فعل الواجبات في الشريعة أعلى من جنس ترك المحرمات[١]؛ لأن الواجبات هي المقصود الأصلي. فيبدأ العبد بمحاسبة نفسه على الفرائض، فإن رأى منها نقصاً تداركه، إما بإعادة الواجب، وإما بالاستكثار من النوافل، فإذا رأى بطلان فريضته من أصلها أعادها، وإن رأى أنها ناقصة فقط استدركها بالنوافل.

٢ـ المحرمات والمناهي: فيحاسب نفسه عليها: هل ارتكب منها شيئاً؟ ثم بعد ذلك يحاول إصلاح ما أفسده، فإن كان قد اكتسب مالاً حراما بالربا تخلص منه، أو اغتصب حقوقاً للآخرين أعادها إليهم، وإن كان قد اغتابهم أو أهانهم أو احتقرهم طلب منهم السماح، ودعا لهم، وتصدق عنهم، وإن كان الأمر لا يمكن تداركه كمن شرب خمراً، أو نظر إلى امرأةٍ، أو نحو

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم (١/ ٩٦).

ذلك فعليه أن يندم ويتوب، ويعقد العزم على عدم العودة، مع الإكثار من الحسنات الماحية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود:١١٤].

٣ـ ثم يحاسب نفسه على الغفلة عما خُلِق له: فينظر إلى نفسه هل هو منغمس في الملاهي والملاعب (غير المحرمة)؟، ويتدارك ذلك بأن يأتي بفترات طويلة تفوقها في الذكر والعبادة والأعمال الصالحة، لتعويض الغفلة التي حدثت.

٤ـ محاسبة الأعضاء: ماذا فعلتُ برجلي؟ بيدي؟ بسمعي؟ ببصري؟ بلساني؟.

ويكون التدارك -في هذه الحالة- بإشغال الأعضاء في طاعة الله.

٥ ـ المحاسبة على النوايا: ماذا أردت بعملي هذا؟ وما نيتي فيه؟.

فلابد من محاسبة خاصة للقلب؛ لصعوبة المحاسبة في النوايا؛ لأنها كثيراً ما تتقلب، وسمّي القلب قلباً من تقلّبه.

معاقبة النفس

إن المؤمن إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية، أو توانت وتكاسلت عن شيء من الفضائل؛ فينبغي أن يعاقبها على ذلك ويؤدبها، جبراً لما فات منه، وتداركاً لما فرط، وتأديباً للنفس ومجاهدة لها.

والنفس لا تستقيم إلا أن تُجَاهد، وتُحَاسَب، وتُعَاقَب.

والعجب أن الإنسان قد يعاقب أهله وخادمه على سوء الخلق والتقصير، ولكن لا يعاقب نفسه على ما صدر عن نفسه من سوء العمل، معَ أن عقوبته لنفسه أولى وأحرى.

وقد يكون في اسم (العقوبات) تسامح وتجوّز، والمقصود أن يلزم الإنسان نفسه بطاعات وأعمال لم يكن يعملها من قبل، وقد كانت هذه هي طريقة السلف، ولنضرب لك أمثلة على معاقبتهم لأنفسهم:

- فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عاقب نفسه حين فاتته صلاة

العصر في جماعة بأن تصدّق بأرض قيمتها مائتا ألف درهم!![١].

- وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة كلها[٢].
- وعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أخّر ليلةً صلاةَ المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين[٣]. مع أن وقت الصلاة لم يخرج!!.
- وفاتت ابنَ أبي ربيعة -رحمه الله- ركعتا سنة الفجر فأعتق رقبة!![٤].
- وابن عون -رحمه الله- نادته أمه، فأجابها، فعلا صوتُه صوتَها فأعتق رقبتين![٥].

---

(١) عمدة القاري (١٢/ ١٧٣).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٨).
(٣) شرح العمدة لابن تيمية (٤/ ٢١٠).
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٨).
(٥) حلية الأولياء (٣/ ٣٩).

فالمعاقبة عند السلف بإلزام النفس بالأعمال الصالحة، ومضاعفة أذكارها وأورادها.

ومما يعين على معاقبة النفس: النظر في الأخبار التي تدل على كثرة الأجر مع قلة العمل.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ**»[(١)].

فإذا نظر المسلم إلى هذا الحديث وأمثاله فإنه لابد سيندم على تفريطه في أوقاته ولحظاته، وأنه ترك الأجر الكثير لأجل راحة الجسد؛ ومن ثَمَّ سيُلزم نفسه بأنواع العبادات الصالحة.

ومما يعين على معاقبة النفس: التأمُّل في أخبار المجتهدين، ومن تأمل في أحوال السلف وماذا كانوا يفعلون مع ندرة هذه النماذج في هذا الزمان؛ قاده ذلك إلى معاقبة النفس بإلزامها بمزيد من العبادات والمستحبات إذا قصّرت.

---

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وصححه الألباني.

قال القاسم بن محمد-رحمه الله-: (غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أُسَلِّمُ عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلّي صلاة الضحى وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور:٢٧]، وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي، تردد الآية وتبكي وتدعو!)[١].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة قوم ينتقون من خيار الكلام كما ينتقى أطايب الثمر)[٢].

وقالت امرأة مسروق-رحمهما الله-: (ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة، والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له)[٣].

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣١).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٧٧)، وتاريخ دمشق (٤٧/ ١٥٩).

(٣) الزهد لابن المبارك (٩٥)، وتاريخ دمشق (٥٧/ ٤٢٦).

وأم الربيع -رحمهما الله- كانت تشفق على ولدها من كثرة بكائه وسهره في العبادة، فنادته: يا بني، لعلك قتلت قتيلاً؟ قال: نعم يا أماه! فقالت: ومن هذا القتيل يا بني؟ حتى يتحمل على أهله فيعفون، والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد لرحموك. فيقول: يا والدة، هي نفسي![1].

وشتان بين هذه النفس الطيبة الطاهرة اللوامة، ونفس الكافر الجاحد المعاند الذي قال لولده المجتهد في العبادة: أنصحك ألا تجتهد في العبادة! فسأله ولده: لماذا؟ قال: لأنه من الممكن أن لا يكون هناك شيء!!.

ما هو الحد في معاقبة النفس؟

إن الإنسان المسلم عليه أن يسوس نفسه سياسةً تؤدي إلى نجاتها، فيجاهدها ويراغمها، فإذا تعبت وكَلَّتْ داراها ونَفَّس عنها، فالنفس لا تأتي إلا بالمداراة والمجاهدة.

فإذا رآها أَمِنَتْ ذَكَّرَها وخَوَّفها من الله، وإذا رآها تكاد

---

(١) الزهد لابن حنبل (٣٤٠)، وحلية الأولياء (٢/ ١١٤).

أن تصل إلى اليأس ذكرها بالرجاء والأمل في الله، وهكذا.

ثم إن النفس تحتاج إلى أن يمنيها الإنسان بالآمال، ويذكرها بالثواب حتى تهون عليها الأعمال الصالحة.

يقول ابن الجوزي -رحمه الله-: (مر بي حَمَّالان تحت جذع ثقيل، وهما يتجاوبان بإنشاد النشيد، فأحدهما يصغي إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله، والآخر همته مثل ذلك، فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقة عليهما، وثقل الأمر، وكلما فعلا هذا هان الأمر، فتأملت في السبب، فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر، وإحالة فكره في الجواب بمثل ذلك، فينقطع الطريق، ويُنسَى ثقل المحمول.

فأخذت من هذا إشارة عجيبة، ورأيت أن الإنسان قد حُمِّلَ من التكليف أموراً صعبة، ومن أثقل ما حُمِّلَ مداراة نفسه، وتكليفها الصبر عما تحب وعلى ما تكره، فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس)[١].

---

(١) صيد الخاطر (٧١).

صور من محاسبة الصالحين لأنفسهم

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبي يحلف فقال: ما من الناس أحد أحب إليّ من عمر. قالت: ثم رجع فقال: كيف قلت يا بنية؟ قالت: ما من الناس أحد أحب إليّ من عمر. فقال: أعزّ[١].

فانظر كيف حاسب نفسه بعد الفراغ من الكلمة، فتدبرها، وأبدلها بكلمة أخرى؛ لأنه رآها أدق وأصدق.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى دخل حائطاً- فسمعته وهو يقول - وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط-: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخٍ! بخٍ! والله لتتقين الله أو ليعذبنّك!)[٢].

---

(١) تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٤٧).
(٢) موطأ مالك (١٨٠٠).

وإنما سمى نفسه (أمير المؤمنين) حتى يُذَكِّر نفسه أن هذا اللقب لا يغني عنه من الله شيئاً!!.

عمرو بن العاص رضي الله عنه يحاسب نفسه:

عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت؛ فبكى طويلا، وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟.

قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

إني قد كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي! قال: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**» قلت: أردت أن أشترط! قال: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**»

قلت: أن يغفر لي. قال: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**» وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها.

فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور، ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي[١].

حنظلة الأسيدي رضي الله عنه:

عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه - وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة ؟ قال:

(١) أخرجه مسلم (١٢١).

قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا – أي: خالطنا ولاعبنا – الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا. فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثلاث مرات[(١)].

علي بن الحسين:

قال الزهري–رحمه الله–: (سمعت علي بن الحسين زين العابدين **يحاسب نفسه** ويناجي ربه ويقول: يا نفس حتَّامَ إلى

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

الدنيا غرورك؟ وإلى عمارتها ركونك؟ أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك؟ ومن وارته الأرض من أُلاَّفِك؟ ومن فجعت به من إخوانك؟ ونقل إلى البلى من أقرانك؟.

كم تخرمت أيدي المنون من قرون بعد قرون؟ وكم غيرت الأرض ببلاها، وغيبت في ثراها، ممن عاشرت من صنوف الناس، وشيعتهم إلى الأرماس؟.

فحتام على الدنيا إقبالُك؟ وبشهواتها اشتغالك؟ وقد وخطك القتير، وأتاك النذير، وأنت عما يراد بك ساهٍ، وبلذة نومك لاهٍ.

انظر إلى الأمم الماضية، والملوك الفانية، كيف أفنتهم الأيام، ووافاهم الحِمام؛ فانمحت من الدنيا آثارهم، وبقيت فيها أخبارهم.

كم من ذي منعة وسلطان وجنود وأعوان تمكن من دنياه، ونال فيها ما تمناه، وبنى القصور والدساكر، وجمع الأعلاق والذخائر؛ أتاه من الله ما لا يُردُّ، ونزل به من قضائه ما لا يُصدُّ،

فتعالى الله الملك الجبار، المتكبر القهار، قاصم الجبارين، ومبير المتكبرين.

فالبدار البدار، والحذار الحذار من الدنيا ومكائدها، وما نصبت لك من مصائدها، وتحلت لك من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها.

وهل يحرص عليها لبيب، أو يُسَرُّ بها أريب، وهو على ثقة من فنائها، وغير طامع في بقائها؟.

كيف تنام عَيْنَا من يخشى البيات؟ وتسكن نفس من يتوقع الممات؟.

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها، ويتمتع به من بهجتها، مع صنوف عجائبها، وكثرة تعبه في طلبها، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها؟.

كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها، وصرعت من مكب عليها، فلم تنعشه من غرته، ولم تقمه من صرعته، ولم تشفه من ألمه، ولم تبرئه من سقمه.

فكم ترقع بآخرتك دنياك؟ وتركب في ذلك هواك؟ أراك ضعيف اليقين يا مؤثر الدنيا على الدين، أبهذا أمرك الرحمن؟ أم على هذا أنزل القرآن؟)[١].

الحارث المحاسبي:

الحارث المحاسبي، ذلك العابد الزاهد، إنما سمي بهذا الاسم لكثرة ما يحاسب نفسه، قال السمعاني: (المُحاسبي: سمي بذلك لأنه كان يحاسب نفسه)[٢].

ابن الجوزي:

يقول عن نفسه: (تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني، فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطفٍ، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجب العقوبة، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان.

---

(١) تاريخ دمشق (٤١/ ٤٠٤-٤٠٨).
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (١١٧).

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت. ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن فِيَّ ما يظن في الفساق، بل هي قبيحة في حق مثلي، ووقعت بتأويلات فاسدة. فصرت إذ دعوت أقول إذا دعوت: اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفر لي. ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك، فما وجدته كما ينبغي، فأخذت أنوح على تقصيري، وصرت أرجو مقام الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود)[١].

(١) صيد الخاطر (٤٧١).

الخاتمة

ينبغي للعبد أن يكون له ساعة يطالب نفسه فيها، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل تجار الدنيا مع الشركاء، حرصاً على ألا يفوتهم شيءٌ من حقهم.

ومعاصي النفس كثيرةٌ، وخيرٌ للمرء أن يحاسب نفسه كل يوم، قبل أن يأتي يومٌ يُحاسب فيه على عمره دفعة واحدة.

كان رجل يحاسب نفسه، فحسب يوماً سنين عمره، فوجدها ستين سنة، فحسب أيامها فوجدها واحداً وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ صرخة وخر مغشياً عليه، فلما أفاق قال: يا ويلتاه، أنا آتي ربي بواحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب.

يقول: هذا لو كان ذنب واحد في كل يوم، فكيف بذنوب كثيرة لا تحصى.

ثم قال: آه علي، عَمَّرْتُ دُنْيَاي، وخَرَّبْتُ أُخْرَاي، وعصيت مولاي، ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب، وكيف أشتهي النقلة إلى دار الكتاب والحساب والعتاب والعذاب بلا عمل ولا ثواب؟!.

ثم شهق شهقة عظيمة فحركوه فإذا هو ميت[١].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم صلاح النفوس، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

(١) العاقبة في ذكر الموت (٣١).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع، أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١- ما المقصود بالمحاسبة؟

٢- اذكر أنواع محاسبة النفس.

٣- هل للمحاسبة أصل في الكتاب والسنة؟

٤- اذكر أوصاف النفس المذكورة في القرآن؟

٥- للمحاسبة فوائد وثمرات جليلة، اذكر خمسة منها؟

٦- اذكر صورا من محاسبة الصالحين لأنفسهم؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١- كيف يحاسب الجاهل نفسه؟

٢- كيف يحاسب العالم نفسه؟

٣- هل المحاسبة خاصة بالعصاة فقط؟

٤- كيف يحاسب المسلم نفسه على العمل الصالح؟

٥- ما الأمور المعينة على حسن محاسبة النفس؟

٦- بماذا يبدأ المسلم محاسبته لنفسه؟

٧- ما الأحوال التي لا يُندب فيها الإنسان إلى معاقبة نفسه؟ ولماذا؟

٨- اذكر كتابا تحدث عن المحاسبة؟

المحتويات